إبن الرومي

وشوه في الغدير

تأليف
العلامة الشيخ عبد الحسين الأميني

فهرس المطالب

- ابن الرومي
- الشاعر
- أولاده
- تعليمه
- رسائل ابن الرومي
- عقيدته
- هجؤه
- هو وشواء عصره
- تاريخ وفاته
- شهادته

ابن الرومي

المتوفى 283

يا هند لم أعشق ومثلي لا يرى * عشق النساء ديانة وتحوجا

لكن حبي للوصي مخيم * في الصدر يسوح في الفؤاد تولجا

فهو السواج المستنير ومن به * سبب النجاة من العذاب لمن نجا

وإذا تركت له المحبة لم أجد * يوم القيامة من ذنوبي مخوجا

قل لي: أأتوك مستقيم طريقه * جهلا وأتبع الطريق الأعوجا؟!؟!

وأراه كالتبر المصفى جوهرا * وأرى سواه لناقديه مبهرجا

ومحله من كل فضل بين * عال محل الشمس أو بدر الدجا

قال النبي له مقالا لم يكن * يوم (الغدير) لسامعيه ممجمجا

: من كنت مولاه فذا مولى له * مثلي وأصبح بالفخار متوجا

وكذاك إذ منع البتول جماعة * خطبوا وأكرمه بها إذ زوجا

وله عجائب يوم سار بجيشه * يبغي لقصر النهروان المخرجا

ردت عليه الشمس بعد غروبها * بيضاء تلمع وقدة وتأججا [1]

* (الشاعر) *

أبو الحسن علي بن عباس بن جريح [2] مولى عبيد الله بن عيسى بن جعفر البغدادي الشهير بابن الرومي. مفخرة من مفاخر الشيعة، وعبقري من عباقرة الأمة، وشوه الذهبي الكثير الطافح برونق البلاغة قد أربى على سبائك التبر حسنا وبهائا، وعلى

(1) مناقب ابن شهر آشوب 1 ص 531 ط ايران.

(2) كذا في فهرست ابن النديم، وتاريخ الخطيب، وكثير من المعاجم. وفي مروج الذهب: سريج. وفي معجم المرزباني: جورجس. وفي تاريخ ابن خلكان: قبل: جور جيس. وفي بعض المعاجم: جرجيس.

كثر النجوم عددا ونورا، وع في المديح والهجاء والوصف والغزل من فنون الشعر فقصر عن مداه الطامحون، وشخصت إليه الأبصار، فجل عن الند كما قصر عن مزاياه العد.

وله في مودة ذوي القربى من آل الرسول صلوات الله عليه وعليهم أشواط بعيدة، واختصاصه بهم ومدائحه لهم ودفاعه عنهم من أظهر الحقايق الجلية، وقد عده ابن الصباغ المالكي المتوفى 855 في فصوله المهمة ص 302 ، والشبلنجي في نور الأبصار 166 من شعراء الإمام الحسن العسكري صلوات الله عليه.

وكان مجموع شعره غير مرتب على الحروف: رواه عنه المسيبي علي بن عبيد الله ابن المسيب، ومثقال غلام ابن الرومي في مائة ورقة، ورواه عن مثقال أبو الحسن علي بن العصب الملحي، وكتب أحمد بن أبي قسر الكاتب من شعره مائة ورقة، وخالد الكاتب كذلك، فرتبه الصولي على الحروف في مائتي ورقة، جمع شعره أبو الطيب وراق بن عبدوس من جميع النسخ فزاد على كل نسخة مما هو على الحروف وغيرها نحو ألف بيت.

وللخالديين: أبي بكر محمد وأبي عثمان سعيد كتاب في أخبار شعر المترجم [1] وانتخب ابن سينا ديوانه وشرح مشكلات شعره كما في (كشف الظنون) 1 ص 498 ، وعن ابن سينا: أن مما كلفني استادي في الأدب حفظ ديوان ابن الرومي فحفظته مع عدة كتب في ستة أيام ونصف يوما.

ويروي بعض شعره أبو الحسين علي بن جعفر الحمداني، وإسماعيل بن علي الخزاعي، وأبو الحسن جحظة الذي مدحه ابن الرومي بقصيدة توجد في ديوانه 168.

تجد ذكره والثناء عليه في فهرست ابن النديم 235 ، تاريخ بغداد 12 ص 23 ، معجم الشعراء 289، 453 ، أمالي الشريف المرتضى 2 ص 101 ، مروج الذهب 2 ص 495 ، العمدة لابن رشيق 1 ص 56، 61، 91، معالم العلماء لابن شهر آشوب، وفيات الأعيان 1 ص 385 ، مرآة الجنان لليافعي 2 ص 198 ، شذرات الذهب 2 ص 188 ، معاهد التنصيص 1 ص 38، كشف الظنون 1 ص 498 ، روضات الجنات 473 ، نسمة السحر فيمن تشيع وشعر، دائرة المعارف للبستاني 1 ص 494، دائرة المعارف الإسلامية

(1) راجع فهرست ابن النديم ص 235 و 241.

1 ص 181 ، الأعلام للزركلي 2 ص 675 ، الشيعة وفنون الاسلام 105 ، مجلة الهدى العراقية الجزء السادس ص 223 – 227.

وعني بجمع آثاره وكتابة أخباره وروايتها جمع منهم:

1 – أبو العباس أحمد بن محمد بن عبيد الله بن عمار المتوفى 319 ، قال ابن المسيب لما مات ابن الرومي عمل كتابا [1] في تفضيله ومختار شعره وجلس يمليه على الناس.

كما في فهرست ابن النديم 212، ومعجم الأدباء 1 ص 227.

2 – أبو عثمان الناجم، ترجمه في كتاب مقصور عليه.

3 أبو الحسن علي بن عباس النوبختي المتوفى 327 ، جمع أخباره في كتاب مفرد كما في معجم المرزباني 295، ومعجم الأدباء 2295.

وأفرد من كتاب المتأخرين الأستاذ عباس محمود العقاد كتابا في ترجمته في 392 صفحة ونحن نأخذ منه ما هو المهم ملخصا بلفظه قال:

قد أدرك ابن الرومي في حياته ثمانية خلفاءهم: الواثق. المتوكل. المنتصر.

المستعين. المعتز. المهتدي. المعتمد. المعتضد المتوفى بعد ابن الرومي.

أثنى عليه العميدي صاحب (الابانة) وابن رشيق صاحب (العمدة) وقال: أكثر المولدين اختراعا وتوليدا فيما يقول الحذاق: أبو تمام وابن الرومي. وأطراه ابن سعيد المغربي المتوفى 673 في كتابه: عنوان المرقصات والمطربات.

ويظهر أن أبا عثمان سعيد بن هاشم الخالدي من أدباء القرن الرابع توسع في ترجمته إما في كتابه: حماسة المحدثين. أو في كتاب مقصور عليه. ولكن أخباره هذه ذهبت كلها ولم تبق منها أثر إلا متفرقات في الكتب لا تفني في ترجمة وافية ولا شبيهة بالوافية فنحن ننقلها كما هي:

ولد يوم الأربعاء بعد طلوع الفجر لليلتين خلتا من رجب 221 ببغداد في الموضع المعروف بالعقيقة [2] ودرب الختلية في دار بناء قصر عيسى بن جعفر بن منصور [3].

---

(1) ينقل الحموي عنه ترجمة أحمد بن محمد بن عمار في معجم الأدباء.

(2) في معجم الشعراء: في الجانب الغربي بالعتيقة. وهذا هو الصحيح.

(3) أخذه من أبي عثمان الخالدي.

كان ابن الرومي مولى لعبد الله بن عيسى ولا يشك أنه رومي الأصل فإنه يذكره ويؤكده في مواضع من ديوانه واسم جده مع هذا: جريح. أو: جرجيس.

اسم يوناني لا شبهة فيه، فلا ينبغي الالتفات إلى من قال: إنه سمي بابن الرومي لجماله في صباه

وكان أبوه صديقا لبعض العلماء والأدباء منهم: محمد بن حبيب الرواية الضليع في اللغة والأنساب، فكان الشاعر يختلف إليه لهذه الصداقة، وكان محمد بن حبيب يخصه لما يراه من ذكاءه وحدة ذهنه، وحدث الشاعر عنه فقال: إنه كان إذا مر به شئ يستغربه ويستجيده يقول لي: يا أبا الحسن ضع هذا في تامورك.

وقد علمنا أن أمه كانت فارسية من قوله: الفرس خؤلي والروم أعمامي. وقوله:

فلم يلدني أبو السواس ساسان. بعد أن رفع نسبه إلى يونان من جهة أبيه، وربما كانت أمه من أصل فارسي ولم تكن فارسية قحا لأبيها وأمها وهذا هو الأرجح لأن علمه بالفارسية لم يكن علم رجل نشأ في حجر أم تتكلم هذه اللغة ولا تحسن

الكلام بغوها، وماتت أمه وهو كهل أو مكتهل كما يقول في رثائها:

أقول: وقد قالوا: أتبكي لفاقد * رضاعا وأين الكهل من راضع الحلم؟!

هي الأم يا للناس جزعت فقدها * ومن يبك أما لم تذم قط لا يذم

وكانت أمه تقية صالحة رحيمة كما يؤخذ من أبياته في رثائها.

*** (قال الأميني) *:**

أمه حسنة بنت عبد الله السجزي كما في معجم المرزباني، وسجز بلدة من بلاد الفرس من أرباض خراسان فهي فارسية قح.

أخوه وشقيقه محمد المكنى بأبي جعفر وهو أكبر من المترجم وتوفي قبله وكان تتفجع بذكراه ورثاه، ومات أخوه وهو يعمل في خدمة عبيد الله بن عبد الله بن طاهر أحد أركان بيت بني طاهر، ويظهر من ديوان المترجم إنه كان أديبا كاتبا أيضا.

ولم يبق لابن الرومي بعد موت أخيه أحد يعول عليه من أهله أو من يحسبون في حكم أهله إلا أناس من مواليه الهاشميين العباسيين كانوا يبرونه حينا ويتناسونه أحيانا، و كان لعهد الهاشميين الطالبيين أحفظ منه لعهد الهاشميين العباسيين كما يظهر مما يلي.

أما ابن عمه الذي أشار إليه في قوله:

لي ابن عم يجر الشر مجتهدا * إلي قدما ولا يصلي له نارا

يجني فاصلي بما يجني فيخذلني * وكلما كان زندا كنت مسعارا

فلا ندري أهو ابن عم لح؟! أو ابن عم كلالة؟! ومبلغ ما بينهما من صلة المودة ظاهر من البيتين.

أولاده

رزق ابن الرومي ثلاثة أبناء وهم: هبة الله. محمد. وثالث لم يذكر اسمه في ديوانه. ماتوا جميعا في طفولتهم ورثاهم بأبلغ وأفجع ما رثى به والد أبناءه، وقد سبق الموت إلى أوسطهم محمد فرثاه بدالية مشهورة يقول فيها:

توخى حمام الموت أوسط صبيتي * فلله كيف أختار واسطة العقد؟!

على حين شمت الخير في لمحاته * وآنست من أفعاله آية الرشد

ومنها في وصف مرضه:

لقد قل بين المهد واللحد لبثه * فلم ينس عهد المهد أو ضم في اللحد

ألح عليه الترف حتى أحاله * إلى صفرة الجادي [1] عن حمرة الورد

وظل على الأيدي تساقط نفسه * ويفوي كما يفوي القضيب من الرند [2]

ويذكر فيها أخويه الآخرين:

محمد؟ ما شيئ توهم سلوة * لقلبي إلازاد قلبي من الوجد

أرى أخويك الباقيين كليهما * يكونان للأحزان أورى من الزند

إذا لعبا في ملعب لك لذعا * فؤادي بمثل النار عن غير ما عمد

فما فيهما لي سلوة بل حرارة * يهيجانها دوني وأشقى بها وحدي

أما ابنه هبة الله فقد ناهز الشباب على ما يفهم من قوله في رثاءه.

يا حسرتا فرقتني فننا * غضا ولم يثمر لي الفنن

ابني؟ إنك والغواء معا * بالأمس لف عليكما كفن

---

(1) الجادي: الزعفران.

م (2) ينوى من نوى النبات ونوى: ذبل ونشف ملؤه. الوند: نبات من شجر البادية طيب الرائحة يشبه الآس).

وفي الديوان أبيات يرثي بها ابنا لم يذكر اسمه وهي:

حماه الكرى هم سوى فتأوبا * فبات يراعي النجم حتى تصوبا

أعيني جودا لي فقد جدت للثرى * بأكثر مما تمنعان وأطيبا

بني الذي أهديته أمس للثرى * فلله ما أقوى قناتي وأصلبا

فإن تمنعاني الدمع أرجع إلى أسى * إذا فترت عنه الدموع تلهبا

وهي على الأرجح رثاؤه لأصغر أبناءه الذي لم يذكر اسمه ولا نوي هل مات قبل أخيه أو بعده؟!؟! ولكن يخيل إلينا من المقابلة بين هذه المراثي أن الأبيات البائية كانت آخر ما رثى به ولدا لأنها تنم عن فجيعة رجل راضه الحزن على فقد البنين حتى جمدت عيناه ولم يبق عنده من البكاء إلا الأسى الملتهب في الضلوع، وإلا العجب من أن يكون قد عاش وصلبت قناته لكل هذه الفجايع، وقد كان رثاؤه لابنه الأوسط صرخة الضربة الأولى، ففيها ثورة لاعجة تحس من خلال الأبيات، ثم حل الألم المرير محل الألم السوار في مصيبته الثانية، فوجم وسكن واستعبر، ثم كانت الخاتمة فهو مستسلم يعجب للحزن كيف لم يقض عليه، ويحس وقدة المصاب في نفسه ولا يحسه في عينيه، ولقد غشيت غمرة الموت حياته كلها، وماتت زوجته بعد موت أبنائه جميعا فتمت بها مصائبه وكبر عليه الأمر. إلخ

تعليمه

ذلك كل ما استطعنا أن نجمعه من الأخبار النافعة عن نشأة الشاعر وأهله ولا فائدة من البحث في المصادر التي بين أيدينا عن أيام صباه وتعليمه ومن حضر عليهم و تتلمذ لهم من العلماء والرواة فإن هذه المصادر خلو مما يفيد في هذا المقام إلا ما جاء عرضا في الجزء السادس من (الأغاني) حيث يروي ابن الرومي عن أبي العباس ثعلب عن حماد بن المبارك عن الحسين بن الضحاك. وحيث يروي في موضع آخر عن قتيبة عن عمر السكوني بالكوفة عن أبيه عن الحسين بن الضحاك، فيصح أن

تكون الرواية هنا رواية تلميذ عن أستاذ، لأن ثعلبا ولد سنة مائتين فهو أكبر من الشاعر بإحدى و عشرين سنة، أما قتيبة (والمفهوم أنه أبو رجاء قتيبة بن سعيد بن جميل الثقفي المحدث العالم المشهور) فجائز أن يكون ممن أملوا عليه وعلموه لأنه مات وابن الرومي

يناهز العشرين.

وقد مر بنا أنه كان يختلف إلى محمد بن حبيب الراوية النسابة الكبير، وسنرى هنا أنه كان يرجع إليه في بعض مفرداته اللغوية فيذكر شرحها في ديوانه معتمدا عليه قال بعد قوله:

وأصدق المدح مدح ذي حسد * ملاءن من بغضه ومن شنف

قال لي محمد بن حبيب: الشنف ما ظهر من البغضة في العينين وأشار إليه بعد بيت آخر وهو:

بانوا فبان جميل الصبر بعدهم * فللدموع من العينين عينان

إذا فسر كلمة (عينان) فروى عن ابن حبيب أنه قال: عان الماء يعين عينا وعينانا إذا ساح. فهؤلاء ثلاثة من أساتذة ابن الرومي على هذا الاعتبار ولا علم لنا بغيرهم فيما راجعناه وحسبنا مع هذا أن الرجل كيفما كان تعليمه وأيا كان معلموه قد نشأ على نصيب واف من علوم عصره، وساهم في القديم والحديث منها بقسط وافر في شعره فلو لم يقل المعري: إنه كان يتعاطى الفلسفة. والمسعودي: إن الشعر كان أقل آلاته.

لعلمنا ذلك من شواهد شتى في كلامه، فهي هناك كثيرة متكررة لا يلم المتصفح ببعضها إلا جزم باطلاع قائلها على الفلسفة ومصاحبة أهلها واشتغاله بها، حتى سرت في أسلوبه وتفكيره، وما كان متعلم الفلسفة في تلك الأيام يصنع أكثر من ذلك ليتعلمها أو ليعد من متعلميها، فأنت لا تقرأ لرجل غير مشتغل أو ملم بالفلسفة والقياس المنطقي والنجوم كلاما كهذا الكلام

لما تؤذن الدنيا به من صروفها * يكون بكاء الطفل ساعة يولد

وإلا فما يبكيه منها وأنها * لأرحب مما كان فيه وأرغد؟!

وذكر شواهد كثيرة على إلمامه بالعلوم ومعرفته بمصطلحاتها غضضنا الطرف عنها اختصارا.

رسائل ابن الرومي

وقد وردت في أبياته الهمزية إشارة إلى حذقه في الكتابة ومشاركته في البلاغة المنثورة تعززها إشارة مثلها في هذا البيت:

ألم تجدوني آل وهب لمدحكم * بشعري ونثري أخطلا ثم جاحضا؟!

فلا بد أنه كان يكتب ويمارس الصناعة النثرية إلا ما استجمعناه من منثوراته لا يعدو نبذا معدودة موجزة، منها: رسالة إلى القاسم بن عبيد الله يقول فيها متنصلا 1 ترفع عن ظلمي إن كنت بريئا، وتفضل بالعفو إن كنت مسيئا، فوالله إني لأطالب عفو ذنب لم أجنه، وألتمس الاقالة مما لا أعرفه، لتزداد تطولا وازداد تذللا، وأنا أعيذ حالي عندك بكرمك من واش يكيدها،

وأحوسها بوفاءك من باغ يحاول إفسادها، وأسأل الله تعالى أن يجعل حظي منك بقدر ودي لك ومحلي من رجائك بحيث أستحق منك. والسلام.

2 رسالة كتبها يعود صديقا: أذن الله في شفائك، وتلقى داءك بدوائك، ومسح بيد العافية عليك، ووجه وفد السلامة إليك، وجعل علتك ماحية لذنوبك، مضاعفة لثوابك.

3 كتب إلى صديق له قدم من (سواف) [1] فأهدى إلى جماعة من إخوانه ونسيه: أطال الله بقاءك وأدام عزك وسعادتك وجعلني فداءك، لولا أنني في حوة من أموي وشغل من فكري لما افترقنا، وشوقي علم الله فغالب، وظمأي فشديد، وإلى الله الرغبة في أن يجعل القوة على اللقاء حسب المحبة أنه قادر جواد.

ومكاننا من جميل رأيك أيدك الله يبعثنا على تقاضي حقوقنا قبلك، وكريم سجاياك وأخلاقك يشجعنا على إمضاء العزم في ذلك، وما تطولت به من الايناس يؤنسنا بك و يبسطنا إليك، وآثار يديك تدلنا عليك، وتشهد لنا بسماحتك، والله يطيل بقاءك و يديم لنا فيك وبك السعادة.

وبلغني أدام الله عزك أن سحائب تفضلك أمطرت منذ أيام مطرا عم إخوانك بهدايا مشتملة على حسن وطيب، فأنكرت على عدلك وفضلك خروجي منها مع دخولي في جملة من يعتدك ويعتقدك وينحوك ويعتمدك، وسبق إلى قلبي من ألم سوء الظن رأيك أضعاف ما سبق إليه من الألم بفوت الحظ من لطفك، فرأيت مدلوات قلبي من ظنه، وقلبك من سهوه، واستبقاء الود بيننا بالعتاب الذي يقول فيه القائل: (ويبقى

(1) سيراف: مدينة جليلة على ساحل بحر فارس، منها إلى شيراز ستون فرسخا.

الود ما بقي العتاب) وفيما عاتبت كفاية عند من له أذنك الواعية وعينك الراعية.

4 وقال في تفضيل النرجس على الورد: النرجس يشبه الأعين والمضاحك، والورد يشبه الخدود، والأعين والمضاحك أشرف من الخدود، وشبيه الأشرف أشرف من شبيه الأدنى، والورد صفة لأنه لون والنرجس يضارعه في هذا الاسم، لأن النرجس هو الريحان الوارد أعني أنه أبدا في الماء، والورد خجل، والنرجس مبتسم، وانظر أدناهما شبها بالعيون فهو أفضل.

هذه نماذج من منثوراته لا نعرف غيرها فيما بين أيدينا، وخليق بمن يكتب بهذا الأسلوب أن يعد في بلغاء الكتاب وإن لم يعد في أبلغهم، على أن ابن الرومي لم يكن يحسب نفسه إلا مع الشعراء إذا اختلفت الطوائف، فإنه يقول عن نفسه وهو يمدح أبا الحسين كاتب ابن أبي الإصبع:

ونحن معاشر الشعراء تنمى * إلى نسب من الكتاب دان

وإن كانوا أحق بكل فضل * وأبلغ باللسان وبالبيان

أبونا عند نسبتنا أبوهم * عطارد السموي المكان

أما حظه من علوم العربية والدين فمن المفضول أن نتعرض لإحصاء الشواهد عليه في كلامه، لأنه أبين من أن يحتاج إلى

تبيين. وندر في قصائده المطولة أو الموجزة قصيدة تقرأها ولا تخرج منها وأنت موقن باستبحار ناظمها في اللغة وإحاطته الواسعة بغريب مفرداتها وأوزان اشتقاقها وتصريفها وموقع أمثالها وأسماء مشاهرها، وما يصحب ذلك من أحكام في الدين ومقتبسات من أدب القرآن، فليس في شعر العربية من تبدو هذه الشواهد في كلامه بهذه الغزارة والدقة غير شاعرين اثنين: أحد هما صاحبنا والثاني المعري، وقد كان يمدح الرؤساء والأدباء أمثال عبيد الله بن عبد الله، وعلي بن يحيى، وإسماعيل بن بلبل فيفسر غريب كلماته في القرطاس الذي يثبت فيه قصايده كأنه كان يشفق أن تفوتهم دقايق لفظه وأسرار لغته ثم يعود إلى الاعتذار من ذلك إذا أنس منهم الجفوة والتغير.

لم أفسر غريبها لك لكن * لامرئ يجهل الغريب سواكا

لغريك لا لك التفسير أنى * يفسر لابن بجدتها الغريب

وكانوا لشهرته باللغة وعلم أسرارها ولطيف نكاتها يختلقون له الكلمات النافرة يسألونه عنها ليعبثوا به أو يعجزوه، وقصة (الجوامض) إحدى هذه المعابثات التي تدل على غيرها من قبيلها، فقد سأله بعضهم في مجلس القاسم بن عبيد الله: ما الجوامض؟!

فارتجل مجيبا:

وسألت عن خبر الجوامض * طالبا علم الجوامض

وهو الخوا كل والغوامض * قد تفسر بالغوامض

وهو السلجكل شئت إذ * لك أم أبيت بفوض فارض

وكلها كلمات من مادة الجوامض لا معنى لها ولا وجود، وإذا صح استقراؤنا وكان من أساتذته أمثال ثعلب وقتيبة فضلا عن الأستاذية الثابتة لابن حبيب فلا جرم يصير ذلك علمه بالغريب والأنساب والأخبار، هؤلاء كلهم من نخبة النخبة في هذه المطالب، ولا سيما إذا أعانهم تلميذ ذو فطنة متوقدة الفهم وذاكرة سريعة الحفظ كهذا التلميذ، فقد مر بك أنه كان يحفظ الأبيات الخمسة من قراءة واحدة فهب في الرواية بعض مبالغة التي تتعرض لها أمثال هذه الروايات فهو بعد سريع الحفظ و هذا مما يعينه على تحصيل اللغة وتعليق المفردات.

عاش ابن الرومي حياته كلها في بغداد لا يفارقها قليلا حتى يعود سريعا وقد نازعه إليها الشوق وغلبه نحوها حنين، وكانت بغداد يومئذ عاصمة الدنيا غير مدافع، و كان صاحب صنيعة ومالك دارين وثراء وتحف موروثة منها قدح زعم أنه كان للرشيد ووصفه في شعره لما أهداه إلى علي بن المنجم يحيى

قدح كان للرشيد اصطفاه * خلف من ذكره غير خلف

كفم الحب في الحلاوة بل أحلى * وإن كان لا يناغي بحرف

صيغ من جوهر مصفى طباعا * لا علاجا بكيمياء مصف

تنفذ العين فيه حتى تراها * أخطأته من رقة المستشف

كهواء بلا هباء مشوب * بضياء أرق بذاك وأصف

ثم استوعب الكلام في البحث عن مزاجه وأخلاقه ومعيشته وما كانت تملكه يده وذكرى مطايباته ومفاكهاته وهجؤه وفشله وطيرته من ص 102 – 203 فشرع

في بيان عقيدته (وهناك مواقع للنظر) وقال:

عقيدته

تقدم في الكلام عن الحالة الدينية في القرن الثالث للهجرة أنه كان عصرا كثرت فيه النحل والمذاهب وقل فيه من لا يرى في العقايدرأيا يفسر به إسلامه و يخلصه بين جماعة الدارسين وقراء العلوم الحديثة.

فابن الرومي واحد من هؤلاء القراء لا ننتظر أن تمر به هذه المباحث التي كان يدرسها ويحضر مجالسها ويسمع من أهلها بغير أثر محسوس في تفسير العقيدة، فكان مسلما صادق الاسلام، ولكنه كان شيعيا معتزليا قدريا يقول بالطبيعتين، وهي أسلم النحل التي كانت شايعة في عهده من حيث الإيمان بالدين.

وقد قال المعري في رسالة الغفران: إن البغداديين يدعون أنه متشيع و يستشهدون على ذلك بقصيدته الجيمية ثم عقب على ذلك فقال: ما أراه إلا على مذهب غيره من الشعراء.

ولا ندري لماذا شك المعري في تشيعه لأنه على مذهب غيره من الشعراء، فإن الشعراء إذا تشيعوا كانوا شيعة حقا كغيرهم من الناس، وربما أفرطوا فزادوا في ذلك على غيرهم من عامة المتشيعين، وإنما نعتقد أن المعري لم يطلع على شعره كله فخفيت عنه حقيقة مذهبه ولولا ذلك لما كان بهذه الحقيقة من خفاء.

على أن القصيدة الجيمية وحدها كافية في إظهار التشيع الذي لا شك فيه، لأن الشاعر نظمها بغير داع يدعوه إلى نظمها من طمع أو مدراة، بل نظمها وهو يستهدف للخطر الشديد من ناحية بني طاهر وناحية الخلفاء، فقد رثى بها يحيى بن عمر بن الحسين ابن زيد بن علي الثائر في وجه الخلافة ووجه أبناء طاهر ولاة خراسان، وقال فيها يخاطب بني العباس ويذكر (ولاة السوء) من أبناء طاهر:

أجنوا بني العباس من شنآئكم * وأوكوا على ما في العياب وأشرجوا

وخلوا ولاة السوء منكم وغيهم * فأحرى بهم أن يغرقوا حيث لججوا

نظار لكم أن يرجع الحق راجع * إلى أهله يوما فتشجوا كما شجوا

على حين لا عذري لمعتذريكم * ولا لكم من حجة الله مخرج

فلا تلحقوا الآن الضغاين بينكم * وبينهم إن اللواقح تنتج

غررتم لئن صدقتم أن حالة * تدوم لكم والدهر لونان أخوج

لعل لهم في منطوى الغيب ثاؤا * سيسمو لكم والصبح في الليل مولج

فماذا يقول الشيعي لبني العباس أقسى وأصوح في التربص بدولتهم وانتظار دولة العلويين من هذا الكلام؟! فقد أنذر بني العباس بزوال الملك وكاد يتمنى أو تمنى لبني علي يوما يهزمون فيه أعداءهم، ويرجعون فيه حقهم، ويطلبون تراثهم، وينكلون بمن نكل بهم، وهواه ظاهر من العلويين لا مداجاة فيه كهوى كل شيعي في هذا المقام.

على أنه كان أظهر من هذا في النونية التي تمنى فيها هلاك أعدائهم ولام نفسه على التقصير في بذل دمه لنصرتهم:

إن يوالي الدهر أعداء لكم * فلهم فيه كمين قد كمن

خلعوا فيه عذار المعتدي * وغدوا بين اعتراض وأرن

فاصبروا يهلكهم الله لكم * مثل ما أهلك أنواء اليمن

قرب النصر فلا تستبطئوا * قرب النصر يقينا غير ظن

ومن التقصير صوني مهجتي * فعل من أضحى إلى الدنيا ركن

لا دمي يسفك في نصرتكم * لاولا عرضي فيكم يمتهن

غير أني باذل نفسي وإن * حقن الله دمي فيما حقن

ليت إني غرض من دونكم * ذاك أو درع يقيكم ومجن

أتلقى بجبيني من رمي * وبنحوي وبصدري من طعن

إن مبتاع الرضي من ربه * فيكم بالنفس لا يخشى الغبن

وليس يجوز الشك في تشيع من يقول هذا القول ويشعر هذا الشعور، فإنه يعرض نفسه للموت في غير طائل حبا لبني علي وغضبا لهم وإشهارا لهم لعاطفة لا تفيده و لا تفيدهم، وقد كان لا يذكر يحيى بن عمر إلا بلقب الشهيد كما ذكره في القصيدة الجيمية وفي خاطرة أخرى مفردة نظمها في هذين البيتين:

كسته القنا حلة من دم * فأضحت لدى الله من لرجوان

جزته معانقة الدار * عين معانقة القاصرات الحسان

وبعض هذا يكفي في الدلالة علي تشيعه للطالبيين واتخاذه التشيع مذهبا في الخلافة كمذهب الشعراء أو غير الشعراء ولا سيما التشيع المعتدل الذي يقول أهله بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل، ويستنكرون لعن الصحابة الذين عارضوا عليا في الخلافة، ومعظم هؤلاء من الزيدية الذين خرجوا في جند يحيى بن عمر لقتال بني العباس، فهم لا يقولون في نصرة آل علي أشد مما قال ابن الرومي، ولا يتمنون لهم أكثر مما تمناه.

ويلوح لنا أن ابن الرومي ورث التشيع وراثة من أمه وأبيه لأن أمه كانت فارسية الأصل فهي أقرب إلى مذهب قومها

الفرس في نصرة العلويين،ولأن أباه سماه عليا وهو من أسماء الشيعة المحبوبة التي يتجنبها المتشددون من أنصار الخلفاء، ولا حرج على أبي الشاعر أن يتشيع وهو في خدمة بيت من بيوت العباسيين، لأن مواليه كانوا أناسا بعيدين من الخلافة وولاية العهد وهما علة البغضاء الشديدة بين العباسيين والعلويين، وقد اتفق لبعض الخلفاء وولاة العهد أنفسهم أنهم كانوا يكرمون عليا وأبناءه كما كان مشهورا عن (المعتضد) الخليفة الذي أكثر ابن الرومي من مدحه، كما كان مشهورا عن (المنتصر) ولي العهد الذي قيل: إنه قتل أباه (المتوكل) جرت ملاحاة وقعت بينهما في الذب عن حرمة علي وآله (ثم قال بعد استظهار تشيع بني طاهر ص 207 – 209):

وإن أحق عقيدة أن يجد المرء فيها لعقيدة تجرؤه إذا خاف، وتبسط له العذر والرجاء إذا سخط من صروف الحوادث، وتمهد له الأمل في مقبل خير من الحاضر، وأدنى منه إلى كشف الظلمات ورد الحقوق، وكل أولئك كان ابن الرومي واجده على أوفاه في التشيع للعلويين أصحاب الإمامة المنتظرة في عالم الغيب على العباسيين أصحاب الحاضر الممقوت المتمنى زواله، فلهذا كان متشيعا في الهوى، متشيعا في الرجاء، وكان على مذهب غيره من الشعراء وعلى مذهب غيره من سائر المتشيعين.

أما الاعتزال فابن الرومي لا يكتمه ولا يملي فيه، بل يظهره إظهار معتز به حريص عليه فمن قوله في ابن حريث.

معتزلي مسر كفر * يبدي ظهورا لها بطون

أرفض الاعتزال رأيا * كلا لأني به ضنين

لو صح عندي له اعتقاد * ما دنت ربي بما يدين

وكان مذهبه في الاعتزال مذهب القدرية الذين يقولون بالاختيار وينزهون الله عن عقاب المجبر على ما يفعل، وذلك واضح من قوله يخاطب العباس بن القاشي و يناشده صلة المذهب:

إن لا يكن بيننا قربى فآصرة * للدين يقطع فيها الوالد الولدا

مقالة العدل والتوحيد تجمعنا * دون المضاهين من ثنى ومن جحدا

وبين مستطرفي غي موافقة * ترعى فكيف اللذان استطرفا رشدا

كن عند أخلاقك الزهر التي جعلت * عليك موقوفة مقصورة أبدا

ما عذر (معتزلي) موسر منعت * كفاه معتزليا. مقترا صفدا؟!

أزعم القدر المحتوم أثبطه؟! * إن قال ذاك فقد حل الذي عقدا

أم ليس مستأهلا جدواه صاحبه؟! * أنى؟! وما جار عن قصد ولا عندا

أم ليس يمكنه ما يرتضيه له؟! * يكفي أخا من أخ ميسور ما وجدا

لا عذر فيما يريني الرأي أعلمه * للمرء مثلك ألا يأتي السددا

فواضح من كلامه هذا أنه (معتزلي) وأنه من أهل العدل والتوحيد وهو الاسم الذي تسمى به القدرية لأنهم ينسبون العدل

إلى الله فلا يقولون بعقوبة العبد على ذنب قضى له وسبق إليه،ولأنهم يوحدون الله فيقولون: إن القرآن من خلقه و ليس قديما مضاهيا له في صفتي الوجود والقدم، وقد اختاروا لأنفسهم هذا الاسم ليردوا به على الذين سموهم القدرية ورووا فيهم الحديث (القدرية مجوس هذه الأمة) فهم يقولون: ما نحن بالقدرية لأن الذين يعتقدون القدر أولى بأن ينسبوا إليه، إنما نحن من أهل العدل والتوحيد لأننا نزه الله عن الظلم وعن الشويك.

وواضح كذلك من كلامه أنه يعتقد حرية الانسان فيما يأتي من خير وشر، ويحتج على زميله بهذه الحجة فيقول له: لم لا تثيبني؟! إن قلت: إن القدر يمنعك؟!

فقد حللت ما اعتقدت من اختيار الانسان في أفعاله،وإن قلت: إنك لا تريد؟! فقد ظلمت الصداقة وأخللت بالمروءة. وله عدا هذا أبيات صريحة في اعتقاد (الاختيار) وخلق الانسان لأفعاله كقوله:

ولا صروف الاختيار لاعنقوا * لهوى كما اتثقت جمال قطار

وقوله:

أنى تكون كذا وأنت مخير * متصوف في النقض والإمرار؟!

وقوله:

الخير مصنوع بصانعه * فمتى صنعت الخير أعقبكا

والشر مفعول بفاعله * فمتى فعلت الشر أعطبكا

إلا أنه كان يقول بالقدر في تقسيم الأرزاق وأن:

الرزق آت بلا مطالبة * سيان مدفوعة ومجتذبه

ويقول:

أمارأيت الفجاج واسعة * والله حيا والرزق مضمونا؟!؟!؟!

*** (قال الأميني) *:**

هذا في الرزق الذي يطلبك لا في الرزق الذي تطلبه كما فصله الحديث،ولا تناقض عند القدرية في هذا، لأنهم يقولون بالاختيار فيما يعاقب عليه الانسان ويثاب لا فيما يناله من الرزق وحظوظ الحياة أما القول بالطبيعتين فأوضح ما يكون في قوله:

فينا وفيك طبيعة أرضية * تهوي بنا أبدا لشر قرار

هبطت بآدم قبلنا وبزوجه * من جنة الفردوس أفضل دار

فتعوضا الدنيا الدنية كاسمها * من تلكم الجنات والأنهار

بئست لعمر الله تلك طبيعة * حرمت أبانا قرب أكرم جار

واستأسرت ضعفى بنيه بعده * فهم لها أسرى بغير إسار

لكنها مأسورة مقصورة * مقهورة السلطان في الأحوار

فجسومهم من أجلها تهوي بهم * ونفوسهم تسمو سمو النار

ولا منازعة الجسوم نفوسهم * نفزوا بسورتها من الأقطار

أو قصروا فتناولوا بأكفهم * قمر السماء وكل نجم سار

*** (قال الأميني) ***

لقد عزى الكاتب هاهنا إلى المترجم هنات لا مقيل لها في مستوى الحقيقة، ومنشأ ذلك بعده عن علم الأخلاق وعدمه تعقله معنى الشعر، فحبسه

منافيا للتوحيد الذي جاء به نبي الاسلام، لكن العلم بأساليب الكلام، العالم بما جبل به الانسان من الغرايز المختلفة لا يكاد يشك في صحة معنى الشعر، وهو يعرب عن إلمام ابن الرومي بالأخلاق، والمتكفل لتفصيل هذه الجملة كتب الأخلاق وما يضاهيها، ولخروج البحث عن موضوع الكتاب ضربنا عنه صفحا.

قال: وابن الرومي كان مفطورا على التدين لأنه كان مفطورا على التهيب والاعتماد على نصير، وهما منفذان خفيان من منافذ الإيمان والتصديق بالعناية الكبرى في هذا الوجود، ومن ثم كان مؤمنا بالله خوفا من الشك، مقبلا على التسليم بسيطا في تسليمه بساطة من يهرب من القلق ويؤثر السكينة على أي شئ، وبلغ من بساطته أنه كان ينكر على الحكماء الذين يشكون في حفظ أجساد الأتقياء بعد الموت و يحسبونه من فعل الدواء والحنوط، فقال لابن أبي ناظرة حين تذوق بعض الأجساد ليعلم ما فيها من عوامل البقاء:

يا ذائق الموتى ليعلم هل بقوا * بعد التقادم منهم بدواء

بينت عن رعة وصدق أمانة * لولا اتهامك خالق الأشياء

أحسبت أن الله ليس بقادر * أن يجعل الأموات كالاحياء؟!

وظننت ما شاهدت من آياته * بلطيفة من حيلة الحكماء؟!

ومات وهو يقول في ساعاته الأخيرة:

ألا أن لقاء الله هول دونه الهول

وما كانت الطير عنده إلا شعبة من ذلك التهيب الديني الغريزي، فهو يتفلسف ويرى الآراء في الدين ولكن في حدود من الشعور لا في حدود من التفكير، ولهذا كان الفنان ولم يكن الفيلسوف.

*** (قال الأميني) *:**

الطيرة ليست من شعب الدين، ولا يركن إليها أي خاضع له وملأ مسامعه قول الصادع به صلى الله عليه وآله وسلم: لا طيرة ولا حام. وإنما هي بين ضعف النفس غير المتقوية بنور اليقين والتوكل على الله في ورد وصدر، ولذا كانت شايعة في الجاهلية ونفاها الاسلام.

قال: وليس من الاجتراء أنه قال بالاختيار ورأى له في الدين رأيا غير ما اصطلح

عليه السواد فإنه كان يحيل الذنب على الانسان وينفي الظلم عن القدر في العقاب و الثواب، ويتصور الله على أحسن ما يتصور المتفلسف مثله إلهه؟؟، فكأنما جاءه هذا الرأي من محاباة عالم الغيب لا من الاجتراء عليه، وإنما دفع به إلى رأي المعتزلة مخاوف الشكوك التي كانت تخامره، فلا يستريح حتى يسكن فيها إلى قرار، وينتهي فيها إلى بر الأمان، ولذلك كان يأوي إلى الأصدقاء يكاشفهم بما في صدره ويستعين بهم على تفريج غمته.

ويدمج أسباب المودة بيننا * مودتنا الأوار من آل هاشم

وإخلاصنا التوحيد لله وحده * وتذييبنا؟؟ عن دينه في المقاوم

بمعوفة لا يقوع الشك بابها *ولا طعن ذي طعن عليها بهاجم

وأعمالنا التفكير في كل شبهة * بها حجة تعيي دهاة التواجم

يبيت كلانا في رضى الله ماحضا * لحجته صوا كثير الهماهم

بيد أن الإيمان شئ وأداء الفوايض الدينية شئ آخر، فقصارى الإيمان عنده أنه يؤمنه بقوب آل البيت وتقويه ربه والاطمينان إلى عدله ورحمته، ثم يدع له سبيله يلعب ويموح كلما لذ له اللعب والموح، ولا أهلا بالصيام إذا قطع عليه ما اشتهى من لذة وأرب.

فلا أهلا بمانع كل خير * وأهلا بالطعام وبالشواب

بل لا حوج عليه إذا قضى ليلة في السرور أن يشبهها بليلة المواج.

رفعتنا السعود فيها إلى الفوز * فكانت كليلة المواج

ذلك أنه كان في تقواه طوع الاحساس الحاضر، كما كان في كل حالة من حالاته يلعب، فلا يبالي أن يتماجن حيث لا يليق مجون، ويستحضر التقوى والخشوع فلا يبليه أحد من المتعبدين، ويخيل إليك أنك تستمع إلى متعبد عاش عمره في الصوامع حين تستمع إليه يقول:

تتجافى جنوبهم * عن وطئ المضاجع

كلهم بين خائف * مستجير وطامع

تركوا لذة الكرى * للعيون الهواجع

ورعوا أنجم الدجى * طالعا بعد طالع

لو تراهم إذا هم * خطروا بالأصابع

وإذا هم تأوهوا * عند مر القوارع

وإذا باشروا الثرى * بالخدود الضوارع

واستهلت عيونهم * فائضات المدامع

ودعوا: يا مليكنا * يا جميل الصنائع

اعف عنا ذنوبنا * للوجوه الخواشع

اعف عنا ذنوبنا * للعيون الدوامع

أنت إن لم يكن لنا * شافع خير شافع

فأجيبوا إجابة * لم تقع في المسامع

: ليس ما تصنعونه * أوليائي بضائع

أبذلوا لي نفوسكم * إنها في ودائعي

وله من طراز هذا الشعر الخاشع كثير لا تسمعه من ابن الفارض ولا محيي الدين

*** (قال الأميني) ***

ليس ما ارتئاه ابن الرومي في باب الاختيار نتيجة مخامرة الشبه والشكوك كما يراه (المترجم) وإنما هي وليدة الرهنة الصادقة، وإنه لم يعط القدر حقه محاباة له، لكن الحجج الدامغة ألجأته إلى ذلك، وكذلك ما يقوله في باب الأرزاق فهي تقادير محضة غير أن الانسان كلف بتحري الأسباب الظاهرية جريا على النواميس الإلهية؟؟ المطردة في النظام العالمي الأتم، وهذه مسائل كلامية لا يروقنا الخوض فيها إلا هنالك.

وأما اعتماد ابن الرومي على العدل والرحمة وتنزيه ربه فهو شأن كل مؤمن بالله عارف بكمال قدسه وصفاته الجلالية، وليس قرب أهل البيت الطاهر عليهم السلام إلا نتيجة مودتهم التي هي أجر الرسالة بنص من الذكر الحكيم، وإنما مثلهم كمثل سفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها غرق، وهم عدل الكتاب وقد خلفهما رسول الله صلى الله عليه وآله بعده وقال: ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي، فأحر بهم أن يكون القرب منهم مؤمنا للانسان نشأته الأخرى، وأما ما عزاه إليه من مظاهر من المجون فهي معان شعرية لا يؤاخذ بها القائل، وكم للشعراء الاعفاء أمثالها.

هجاؤه

أخرج القرن الثالث للهجرة شاعرين هجائين هما أشهر الهجائين في أدب العصور الإسلامية عامة: أحدهما ابن الرومي. والآخر دعبل الخزاعي هاجي الخلفاء و الأمراء وهاجي الناس جميعا؟؟ وقال:

إني لأفتح عيني حين أفتحها * على كثير ولكن لا أرى أحدا

وقد جمع المعري بينهما في بيت واحد وضرب بهما المثل لهجاء الدهر لبنيه فقال:

لو أنصف الدهر هجا أهله * كأنه الرومي أو دعبل

وليس للمؤرخ الحديث أن يضيف إسما جديدا إلى هذين الاسمين فإن العصور التالية للقرن الثالث لم تخرج من يضارعهما في قوة الهجاء والنفاذ في هذه الصناعة، و كلاهما مع هذا نوع فذ في الهجاء يظهر متى قرن بالآخر.

فدعبل كما قلنا في غير هذا الكتاب (لا يهمنا ما ذكره في دعبل).

أما ابن الرومي فلم يكن مطبوعا على النقرة من الناس، ولم يكن قاطع طريق على المجتمع في عالم الأدب، ولكنه كان فنانا بارعا أوتي ملكة التصوير ولطف التخيل والتوليد وبراعة اللعب بالمعاني والأشكال، فإذا قصد شخصا أو شيئا بهجاء صوب إليه (مصورته) الواعية فإذا ذلك الشئ صورة مهيأة في الشعر تهجو نفسها بنفسها، وتعرض للنظر مواطن النقص من صفحتها

كما تتطبع؟؟ الأشكال في المرايا المعقوفة والمحدبة، فكل هجوه تصوير مستحضر لأشكاله، أو لعب بالمعاني على حساب من يستثيره.

وابن الرومي يسلب مهجوه الفطنة والكياسة والعلم ويلصق به كل عيوب الحضارة التي يجمعها التبذل والتهالك على اللذات، فإذا حذفت من هجوه كل ما أوجبته الحضارة والخلاعة الفاشية في تلك الحضارة فقد حذفت منه شر ما فيه ولم يبق منه إلا ما هو من قبيل الفكاهة والتصوير.

وكان لصاحبنا فنا واحدا من الهجاء لا يرتاب في أنه كان يختاره ويكثر منه ولو لم تحمله الحاجة وتلجأه النقمة إليه، ونعني به فن التصوير الهزلي والعبث بالإشكال المضحكة والمناظرة الفكاهية والمشابهات الدقيقة، فهو مطبوع على هذا كما يطبع المصور على نقل ما يراه وإعطاء التصوير حقه من الاتقان والاختراع، و

ما نراه كان يقع عنه في شعره ولو بطلت ضروراته وحسنت مع الناس علاقاته، لكن هذا الفن أدخل في التصوير منه في الهجاء، وهو حسنة وليس بسيئة، وقدرة تطلب وليس بخلة تنبذ، وأنت لا يغضبك أن ترى ابنك الذي تهذبه وتهديه ماهرا فيه خبيرا بمغامزه ومخافيه، وإن كان يغضبك أن تراه يشتم المشتوم ويهين المهين، ويهجو من يستهدف غرضه للهجاء، لأنك إذا منعته أن يفطن إلى الصور الهزلية وأن يفتن في إدراك معانيها وتمثيل مشابهاتها ومنعت ملكة فيه أن تنمو وأبيت على حاسته الصادقة فيه أن تصدقه وتفقه ما تقع عليه، أما إذا منعت الهجاء وبواعثه فإنك تمنع خلقا يستغنى عنه، وميلا لا بد له من التقويم.

ذلك هو فن ابن الرومي الذي لا عذر له منه ولا موجب للاعتذار، فأما ما عدا ذلك من هجائه فهو مسوق فيه لا سائق، ومدافع لا مهاجم، ومستثار عن عمد في بعض الأحيان لا مستثير، وإنك لتقرأ له قوله:

ما استب قط اثنان إلا غلبا * شوهما نفسا وأما وأبا

فلا تصدق أن قائله هو ابن الرومي هجاء اللغة العربية وقاذف المهجوين بكل نقيصة لكن الواقع هو هذا، والواقع كذلك أنه كان يسكن إلى رشده أحيانا فيتسأم الهجاء ويعافه ويود الخلاص منه حتى لو كان مهجوا معدوا عليه ويعتزم التوبة عن الهجاء مقسما:

آليت لا أهجو طوال * الدهر إلا من هجاني

لا بل سأطرح الهجاء * وإن رماني من رماني

أمن الخلايق كلهم * فليأخذوا مني أماني

حلمي أعز علي من * غضبي إذا غضبي عواني

أولى بجهلي بعد ما * مكنت حلمي من عناني

وهذا أشبه بابن الرومي لأنه في صميمه خلق مسالما سهلا، ولم يخلق شرسا مطويا على الشكس والعداوة، بل هو لو كان

شوبا لما اضطر إلى كل هذا الهجاء، أو هو لو كان أكبر شوا لكان أقل هجاء، لأنه كان يأمن من جانب العدوان فلا يقابله بمثله، وما كان الهجاء عنده كما قلنا إلا سلاح دفاع لا سلاح هجوم، وما كان هجؤه يشف عن

الكيد والنكاية وما شابههما من ضروب الشر المستقر في الغريزة، كما كان يشف عن الحوج والتهوم والشعور بالظلم الذي لا طاقة له باحتماله ولا باتقائه، وكثير من الأشوار الذين يقتلون ويعتدون ويفسدون في الأرض يقضون الحياة دون أن تسمع منهم كلمة ذم في إنسان، وكثير من الناس يذمون ويتسخطون لأنهم على ذلك مطبوعون.

ومن قرأ مراثي ابن الرومي في أولاده وأمه وأخيه وزوجته وخالته وبعض أصدقائه علم منها أنها مراثي رجل مفطور على الحنان ورعاية الرحم والأنس بالأصدقاء و الأخوان، فمراثيه هي التي تدل عليه الدلالة المنصفة وليست مدائحه التي كان يميلها الطمع والرغبة أو أهاجيه التي كان يميلها الغيظ وقلة الصبر على خلائق الناس، ففي هذه المراثي تظهر لنا طبيعة الرجل لا تشوبها المطامع والضرورات، ونرى فيه الولد البار، والأخ الشفيق، والوالد الرحيم، والزوج الودود، والقريب الرؤف، والصديق المحزون، ولا يكون الرجل كذلك ثم يكون مع ذلك شريرا مغلق الفؤاد مطبوعا على الكيد والإيذاء وإذا اختلف القولان بينه وبين أبناء عصره فأحجى بنا أن نصدق كلامه هو في أبناء عصره قبل أن نصدق كلامهم فيه، لأنهم كانوا يستبيحون إيذاءه ويستسهلون الكذب عليه لغرابة أطواره، وتعود الناس أن يصدقوا كل ما يرمى به غريب الأطوار من التهم والأعاجيب، في حين أنه كان يتحاشى عن تلك التهم، ويغفر الاساءة بعد الاساءة مخافة من كثرة الشكاية و علما منه بقلة الانصاف.

أتاني مقال من أخ فاغتفرته * وإن كان فيما دونه وجه معتب

وذكرت نفسي منه عند امتعاضها * محاسن تعفو الذنب عن كل مذنب

ومثلي رأى الحسنى بعين جلية * وأغضى عن العوراء غير مؤنب

فيا هاربا من سخطنا متنصلا * هربت إلى أنجى مفر ومهرب

فعذرك مبسوط لدينا مقدم * وودك مقبول بأهل ومرحب

ولو بلغتني عنك أذني أقمتها * لدي مقام الكاشح المتكذب

ولست بتقليب اللسان مصارما * خليلي إذا ما القلب لم يتقلب

فالرجل لم يكن شريرا ولا ردئ النفس ولا سريعا إلى النقمة، فلماذا إذن كثر هجؤه واشتد وقوعه في أعراض مهجويه؟! نظن أنه كان كذلك لأنه كان قليل الحيلة

طيب السريرة خاليا من الكيد والمراوغة والدسيسة وما شابه هذه الخلائق من أدوات العيش في مثل عصره، فكان مستغرقا في فنه يحسب أن الشعر والعلم والثقافة وحدها كفيلة بنجاحه وارتقائه إلى مراتب الوزارة والرئاسة، لأنه كان في زمن يتولى فيه الوزارة الكتاب والرواة ويجمعون في مناصبهم ألوف الألوف ويحظون بالزلفى عند الأمراء والخلفاء، وقد كان هو شاعرا

كاتبا، وكان خطيبا واسع الرواية مشاركا في المنطق والفلك واللغة، وكل ما تدور عليه ثقافة زمان، أو كما قال المسعودي: كان الشعر أقل أدواته.. وكان الشعر وحده كافيا لجمع المال وبلوغ الآمال، فماذا بعد أن يعرف الناس إنه شاعر وإنه كاتب وإنه راوية مطلع على الفلسفة والنجوم؟! إلا أن تجيه الوزارة ساعية إليه تخطب وده، كما جاءت إلى أناس كثيرين لا يعلمون علمه، ولا يبلغون في البلاغة مكانه، ألم يصل ابن الزيات إلى الوزارة بكلمة واحدة فسرها للمعتصم وفصل له تفسيرها وهي كلمة (الكلاء) التي يعرفها عامة الأدباء؟! بلى، وابن الرومي كان يعرف من غرايب اللغة ما لم يكن يعرفه شعراء عصره ولا أدبائه، فما أولاه إذن بالوزارة؟ وما أظلم الدنيا؟ إذ هي ضنت عليه بحقه من المناصب والثراء.

فإذا لم تكن الوزارة فهل أقل من الكتابة أو العمالة لبعض الوزراء والكتاب المبرزين؟! فإذا لم يكن هذا ولا ذاك فهل غبن أصعب على النفس من هذا الغبن؟!

وهل تقصير من الزمان ألام من هذا التقصير؟!

ونبوءة أبيه ورجاؤه في مستقبله وقوله: (أنت للشرف) أيذهب هذا كله هباء لا يقبض منه اليدين على شئ؟! تلك النبوءات التي تنطبع على أفئدة الصغار بمثل النار، ولا تزال غرارة الطفولة وأحلام الصبا توخرفها وتوشيها وتعمق في الضمير أغوارها، أيأتي الشباب وهي محو لغو مطموس لا يبين منه إلا ما ينقلب إلى الأضداد وتتوجمه الأيام بالسقم والفقر والكساد؟! وكيف يمحى؟! إلا وقد محى القلب الذي طبعت فيه، وكيف ينعكس معناه؟! إلا وقد انعكس في القلب كل قائم والقوى فيه كل قويم، ذلك صعب على النفوس وليس بالسهل إلا على من يلهو به وهو بعيد.

وهكذا كان ابن الرومي يسأل نفسه مرة بعد مرة ويوما بعد يوم:

مالي أسل من القواب وأغمد؟! * لم لا أجرد؟! والسيوف تجرد

لم لا أجرب في الضرائب مرة * يا للرجال وأنني لمهند؟!

ولا يدري كيف يجيب نفسه على سؤاله، لأنه لم يكن يدري أن فضائله كلها لا تساوي فتيلا بغير الحيلة والعلم بأساليب الدخول بين الناس، وإن الحيلة وحدها قد تغني عن فضائله جميعا ولو كان صاحبها لا ينظم شعرا، ولا ينظر في كتب الفلسفة و الرواية والنجوم.

حسن إذن تدع الوزارة والولاية والعمالة بعد يأس مضيض يسهل علينا هنا أن نسطره في كلمة عارة ولكنه لا يسهل على من يعالجه ويشفي بمحنته في ساعة من ساعات حياته، ندع الوزارة والولاية والعمالة ونقنع بالمثوبة من الوزراء والولاة والعمال إن كانوا يثيبون المادحين، فهل تراهم يفعلون؟!.

لا. لأن الحيلة لازمة في استدرار الجوائز والمثوبات لزومها في كل غرض من أغراض المعاش ولا سيما في ذلك الزمان الذي شاعت فيه الفتن والسعايات، وما كانت تنقضي منه سنة واحدة بغير مكيدة خبيثة تؤدي بحياة خليفة أو أمير أو وزير، وربما كانت مصانعة الحجاب والتماس مواقع الهوى من نفوس الحاشية والندمان و اللعب بمغامز النفوس الخفية وإضحاك

هؤلاء، وهؤلاء، أجدى على الشاعر في هذا الباب من بلاغة شعره وغزارة علمه.

وبسط الكلام في الموضوع إلى ص 235 فقال:

هو وشعراء عصره

عاصر ابن الرومي في بيئته كثير من الشعراء أشهرهم في عالم الشعر الحسين بن الضحاك، ودعبل الخزاعي، والبحتري، وعلي بن الجهم، وابن المعتز، وأبو عثمان الناجم.

وليس لهؤلاء ولا لغيرهم ممن عاصروه وعرفوه أو لم يعرفوه أثر يذكر في تكوينه غير اثنين فيما نظن هما: الحسين بن الضحاك، ودعبل الخزاعي

*** (قال الأميني) ***

وكان بين ابن الرومي والشاعر المفلق ابن الحاجب محمد بن أحمد صلة ومودة وجرت بينهما نوادر منها: أن ابن الحاجب سأله ابن الرومي زيارته في يوم معلوم فصاروا إليه فلم يجدوه فقال ابن الرومي فيه شعرا أوله:

نجاك يا بن الحاجب الحاجب * وليس ينجو مني الهارب

وأجابه ابن الحاجب بأبيات توجد في معجم المرزباني 453.

قال: فكان ابن الرومي معجبا بالحسين بن الضحاك يروي شعره ويستملح أخباره ويذكرها لأصحابه، وكان ابن الرومي يافعا يحضر مجالس الأدب ويتلقى دروسه و الحسين في أوج شهرته يتناشد أشعاره أدباء الكوفة وبغداد ومدن العراق (ثم ذكر بعض ما رواه ابن الرومي من شعر ابن الضحاك نقلا عن الأغاني) فقال:

وقد مات الحسين بن الضحاك وابن الرومي في التاسعة والعشرين ولم نر في تاريخه ولا في تاريخ الحسين ما يشير إلى تلاقيهما في بغداد حيث عاش ابن الرومي معظم حياته، أو في غير بغداد حيث كان يرحل ابن الضحاك.

أما دعبل فابن الرومي عارضه في موضعين أحدهما القصيدة الطائية التي نظمها دعبل حين اتهم خالدا بسرقة ديكه وإطعامه لضيوفه وقال في مطلعها:

أسر المؤذن خالد وضيوفه * أسر الكمي هفا خلال الماقط [1]

ولآخر في قصيدة لدعبل مطلعها:

أتيت ابن عمرو فصادفته * مريض الخلايق ملتاثها

وكان دعبل فيما عدا ذلك متشيعا لآل علي غاليا في تشيعه [2] فجذب ذلك كله نفس ابن الرومي الفتى نحوه وحبب إليه محاكاته ومجاراته، وربما كانت الرغبة في مجاراته إحدى دواعيه إلى الهجاء، ومات دعبل وابن الرومي في الخامسة والعشرين ولا نعلم أنهما تعارفا أو كان بينهما لقاء.

وأما البحتري وأبو عثمان الناجم فالثابت أن ابن الرومي كان على معرفة و صحبة معهما، عرف البحتري في بيت الناجم وكان هذا صديقا له بقي على صداقته إلى يوم موته.

*** (قال الأميني) ***

لابن الرومي قصيدة في البحتري وأدبه وشعره توجد منها أبيات في ثمار القلوب للثعالبي ص 200 و 342.

---

(1) راجع من كتابنا ج 2 ص 379 ط ثاني.

(2) عزو باطل لا يشوه به قدس تشيع مثل دعبل.

وأما علي بن الجهم المتوفى 249 فقد كان بينه وبين ابن الرومي برزخ واسع من اختلاف المذهب في الدين والشعر، فابن الرومي متشيع، وابن الجهم ناصب يذم عليا وآله (لا يلتقي الشيعي والناصب) كما يقول ابن الرومي. وكان ابن الجهم شديد النقمة على المعتزلة وعلى أهل العدل والتوحيد منهم خاصة يهجوهم ويدس لهم ويقول في زعيمهم أحمد بن أبي داود:

ما هذه البدع التي سميتها * بالجهل منك العدل والتوحيدا

وابن الرومي كما مر بك من هذه الجماعة، فمذهبه في الدين ينفره ابن الجهم ولا يرغبه في مجاراته، ولو تشابها فيما عدا ذلك من المزاح والدعة، لقد يهون هذا الفارق ويسهل على ابن الرومي الإغضاء عنه، وهو ناشئ يتلمس القدوة، ويخطو في سبيل الشهرة، ولكنك تقرء شعر ابن الجهم في فخره ومزاحه فيخيل إليك أنك تقرأ كلام جندي يتنفج أو يعربد لخلوه من كل عاطفة غير عواطف الجند يقضون أوقاتهم بين الفجر و الضجيج واللهو والسكر، وليس بين هذه الطبيعة وطبيعة ابن الرومي مسرب للقدوة أو للمقاربة في الميل والاحساس.

وأما ابن المعتز فقد ولد في سنة سبع وأربعين ومأتين فلما أيفع وبلغ السن التي يقول فيها الشعر كان ابن الرومي قد جاوز الأربعين أو ضرب في حدود الخمسين، ولما بلغ واشتهر له كلام يروى في مجالس الأدباء كان ابن الرومي قد أوفى على الستين وفرغ من التعلم والاقتباس، ولو انعكس الأمر وكان ابن المعتز هو السابق في الميلاد لما أخذ منه ابن الرومي شيئا، أو لكان أفسده سليقته بالأخذ عنه، لأن ابن المعتز إنما امتاز بين شعراء بغداد في عصره بمزاياه الثلاث وهي: البديع. والتوشيح. والتشبيه بالتحف والنفائس. وابن الرومي لم يرزق نصيبا معدودا من هذه المزايا ولم يكن قط من أصحاب البديع أو أصحاب التشبيهات التي تدور على الزخرف، وتستفيد نفاستها من نفاسة المشبهات.

تاريخ وفاته

قال ابن خلكان: توفي يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادي الأولى سنة ثلاث و

ثمانين. وقيل: وسبعين ومأتين ودفن في مقبرة باب البستان. والذين جاؤا بعد ابن خلكان تابعوه في هذا الشك ولا مسوغ

(1)

لهذا الشك بأمور الأول قوله:

طربت ولم تطرب على حين مطرب * وكيف التصابي بابن ستين أشيب؟!

فبملاحظة تاريخ ولادته المتسالم عليه بين أرباب المعاجم يوافق ستين مع سنة 281 فهو لم يمت في سنة 276 على التحقيق. ولا يظن أن الستين هنا تقريبية لضرورة الشعر فإنه ذكر الخمس والخمسين في موضع آخر حيث قال.

كبرت وفي خمس وخمسين مكبر * وشبت فألحاظ المها عنك نفر (2)

الثاني: ما في مروج الذهب (ج 2 ص 488) للمسعودي من أن قطر الندى بنت خمارويه وصلت إلى مدينة السلام ابن الجصاص في ذي الحجة سنة إحدى وثمانين ففي ذلك يقول ابن الرومي.

يا سيد العرب الذي زفت له * باليمن والبركات سيدة العجم

*** (قال الأميني) ***

قال الطوي في تاريخه 11 ص 345 : كان دخولهم بغداد يوم الأحد لليلتين خلتا من المحرم سنة 282.

الثالث: مقطوعاته التي نظمها الشاعر في العرس الذي احتفل به الخليفة سنة اثنتين وثمانين.

*** (قال الأميني) ***

ومما ينفي الشك عن عدم وقوع وفاة المترجم سنة 270 قصيدته التي يمدح بها المعتضد بالله أبا العباس أحمد في أيام خلافته وقد بويع له في شهر رجب بعد عمه المعتمد سنة 279 قال فيها:

هنيئا بني العباس إن إمامكم * إمام الهدى والبأس والجود أحمد

كما بأبي العباس أنشئ ملككم * كذا بأبي العباس أيضا يجدد

قال العقاد: وأما التاريخين الآخرين: أي سنة ثلاث وأربع وثمانين فعندنا تاريخ اليوم والشهر من أولاهما وليس عندنا مثل ذلك من الثانية وهذا مما يرجح وفاته في سنة ثلاث وثمانين دون أربع وثمانين.

---

(1) نحن نذكر ملخصها.

(2) ذكر الخمس والخمسين في هذا البيت لا ينافي تقريبية الستين في سابقه.

*** (قال الأميني) ***

لم نعرف وجه الترجيح بذكر تاريخ اليوم والشهر لمجرده مع قطع النظر عما ذكره بعد من مضاهاة التاريخ بقوله:

ويقوي هذا الترجيح أن مضاهاة التواريخ تثبت لنا أن جمادي الأخرى من سنة ثلاث وثمانين بدأت يوم جمعة فيكون يوم الأربعاء قد جاء لليلتين بقيتا من جمادي الأولى في تلك السنة كما جاء في تاريخ الوفاة، وقد ضاهينا هذا اليوم على التاريخ الأفرنجي فوجدناه يوافق الرابع عشر من شهر يونيو، أي يوافق أبان الصيف في العراق، وابن الرومي مات في الصيف كما

يؤخذ من قول الناجم أنه دخل عليه في مرضه الذي مات فيه وبين يديه ماء مثلوج فيجوز لنا على هذا أن نجزم بأن أصح التواريخ الأول و هو: يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادي الأولى سنة ثلاث وثمانين.

شهادته

الأقوال بعد ذلك مجمعة على موت ابن الرومي بالسم وأن الذي سمه هو القاسم بن عبيد الله أو أبوه قال ابن خلكان في وفيات الأعيان (ج 1 ص 386): إن الوزير أبا الحسين القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير الإمام المعتضد كان يخاف من هجوه و فلتات لسانه بالفحش فدس عليه ابن فواش فأطعمه خشكنامجه مسمومة وهو في مجلسه فلما أكلها أحس بالسم فقام فقال له الوزير: إلى أين تذهب؟! فقال: إلى الموضع الذي بعثتني إليه. فقال له: سلم على والدي. فقال له: ما طريقي على النار.

وقال الشريف المرتضى في أماليه (ج 2 ص 101): إنه قد اتصل بعبيد الله ابن سليمان بن وهب أمر علي بن العباس الرومي وكثرة مجالسته لأبي الحسين القاسم فقال لأبي الحسين: قد أحببت أن أرى ابن روميك هذا فدخل يوما عبيد الله إلى أبي الحسين وابن الرومي عنده فاستنشده من شعره فأنشده وخاطبه فرآه مضطرب العقل جاهلا فقال لأبي الحسين بينه وبينه: إن لسان هذا أطول من عقله، ومن هذه صورته لا تؤمن عقاربه عند أول عتب ولا يفكر في عاقبته، فأخرجه عنك. فقال: أخاف حينئذ أن يعلن ما يكتمه في دولتنا ويذيعه في تمكننا. فقال: يا بني؟ إني لم أرد بإخراجك له طرده فاستعمل فيه بيت أبي حية النميري:

فقلن لها سرا: فديناك لا ترح * سليما، وإلا تقتليه فألممي

فحدث القاسم بن فواس بما جرى وكان أعدى الناس لابن الرومي وقد هجاه بأهاج قبيحة فقال له: الوزير أغره الله أشار بأن يغتال حتى يستراح منه وأنا أكفيك ذلك. فسمه في الخشكنانج فمات. قال الباقطاني: والناس يقولون: ما قتله ابن فواس وإنما قتله عبيد الله.

ثم ضعف الرواية الأولى بأن عبيد الله بن سليمان مات سنة 288 بعد وفات ابن الرومي فلا معنى لقول القاسم له: سلم على والدي. ووالده بقيد الحياة.

واستشكل في الرواية الثانية بأن عبيد الله كانت له سوابق معرفة مع ابن الرومي فلا يتم ما فيها من طلبه رؤيته.

وأنت ترى أن التضعيف الثاني ليس في محله إذ الرؤية المطلوبة لعبيد الله كما يظهر من نفس الرواية رؤية اختبار لا مجرد رؤية حتى تنافي التعارف والاجتماع قبلها، فيحتمل عندئذ أن عبيد الله هو القائل: سلم على والدي. لا ابنه، والله العالم.